قراءة في تفسير ابن كثير

سورة الحشر

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا ونورًا لصدرونا وجلاءً لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

من فضل الله علينا أن يبدأ صباحنا بذكره وشكره، وأن نقرأ من كلامه العظيم ونفهم من معانيه ما يزيدنا إيمانًا، ويصلح نفوسنا، ويكون سببًا لرفعة درجاتنا وطمأنينة قلوبنا، ومن هذا دراستنا لسورة الحشر، ومعرفتنا فضل الله على أهل الإيمان، فهو المتفضل -عزَّ وجلَّ- بالامتنان على المسلمين بما ييسر لهم من أمور، كما يسر لأهل الإسلام في زمن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فتح بني النضير بدون قتال، وأفاء الله على رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- منهم وخيّب آمال اليهود وأنصارهم الذين خدعوهم بوعد النصرة.

في سورة الحشر رب العالمين بيّن ذلك المجتمع الذي يتكون أفراده من المؤمنين المتناصرين على الحق، المترضي آخرهم على أولهم، المجتمعين على عقيدة التوحيد،

المتيقنين بوعد الله، المتيقنين أن الدنيا دار اختبار، وأن الآخرة دار الجزاء.

المتأخرون يدعون لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان صادقين في حبهم لإخوانهم، خلاف المنافقين مع أوليائهم من أهل الكتاب، فإنهم يظهرون لهم الولاية ويبطنون في حقيقة شأنهم العداوة، وعنايتهم فقط بأنفسهم.

هذه المعاني كلها دارت في السورة تخاطب أهل الإيمان وتبين لهم الحقائق، إلى أن وصلنا إلى بداية خاتمة السورة، يخاطب الله -عزَّ وجلَّ- في خاتمة السورة أهل الإيمان فيأمرهم بالتقوى، ويذكرهم أنه -سبحانه وتعالى- مؤيدهم، وأنه هو المفيض عليهم بالنعم، وأنهم في الدنيا في دار اختبار، ينقص عليهم ما ينقص، يحتاجون إلى الصبر، تضيق الأمور وتتسع، الدنيا دار اختبار تنظر من خلالها وتعيد حساباتك من خلالها لما يأتي أمامك، لغدك الذي هو النتيجة.

ولذلك في الآية الثامنة عشر -وهي بداية ختم السورة- نجد الأمر بالتقوى قد تكرر مرتين إشارة إلى أنه هو الفيصل في مسلك الإنسان وهو في طريقه إلى الله. غدًا أهل الإيمان يذوقون ثمرات التقوى، وهذا من إحسان الله لهم. اللهم ارزقنا

التقوى وأذقنا ثمراتها، اللهم آمين. نقرأ اليوم تفسير ابن كثير لهذه الآيات بعد أن نتلوها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةَ، عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفة، عَنِ المنذر ابن جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاة عُراة مُجْتَابي النِّمَارِ -أَوِ: العَبَاء-مُتَقَلِّدي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَر، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، قَالَ: فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)[1] . وَقَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) تَصَدَّق رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّه، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ -حَتَّى قَالَ-: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ". قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّة كَادَتْ كَفُّهُ تَعجز عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ

[1] () النِّسَاءِ: 1.

رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ مُذْهبة، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "مَن سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنقُص مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ".

انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِإِسْنَادٍ مِثْلِهِ.

هذا البيان من ابن كثير بيان بالمناسبة، يعني أنه شرح هذه الآية عن طريق أنه أورد نصًا، النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قرأ فيه هذه الآيات، فبيّن الآية من خلال هذا النص.

عندما ننظر إلى الآية وخطابها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)، يعني اتقوا الله في كل ما تأتون وما تذرون (وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) أي أعمال قدمت ليوم القيامة. وهنا عبر رب العالمين عن يوم القيامة بـ "غد" دليل على دنوه وقربه؛ لأن الدنيا كيوم والآخرة كغد، وغد هذا لا يعرف كنهه بسبب عظمته.

هذه الآية النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- تلاها في موقف يرشد فيه أهل الإيمان كيف يستعدون لغد؛ ولذلك أوردها ابن كثير من باب المناسبة. أنت أُمِرت أن تستعد لغد، وغد هذا

قريب، لا شك في ذلك، فكيف تستعد؟ كأن هذا هو السؤال. خصوصًا بمناسبة هذه السورة؛ هذه السورة تخبر عن أهل الإسلام وهم في ضيق من شأنهم، عاشوا أيامًا -بعد هجرة المهاجرين واستقبال الأنصار لهم- فيها ضيق، فيها خصاصة، فيها نقص، ثم أفاء الله عليهم فتوسعوا، فاتقوا الله أن تشغلكم هذه الأموال، واتقوا الله في إنفاق هذه الأموال، وهذه مناسبة واضحة لقصة القوم الذين جاؤوا من مضر للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، لما رآهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- حفاة عراة ليس عليهم إلا ما يستر عورتهم ويتقلدون سيوفهم. وهذه حالة يُصوّر فيها حال ضعف العيش، يظهر عليهم هذا الأمر، دخلوا على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فتغير وجهه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما رأى بهم من الفاقة.

نعم، الإنسان لا يتوسع في الدنيا، لكن في المقابل، الفقر الشديد يجعل الإنسان في غاية من الضيق، نسأل الله أن يرفع عن إخواننا في كل مكان، نسأل الله أن يرفع عنهم الفاقة والجوع ويطعمهم ويسقيهم، وهو على كل شيء قدير. تغير وجه النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما رأى بهم من فاقة، فدخل ثم خرج وأمر بلالًا بالأذان وأقام الصلاة وصلى وخطب في الناس، ولما خطب في الناس ابتدأ بآية سورة النساء إشارة إلى أننا كلنا من نفس واحدة وكلنا متعاونين

على الحفاظ على هذه النفس، وشأن النفس في هذا الدين شأن عظيم، تكرم وتحترم ولا تهان، ولها حقوق الله -عزَّ وجلَّ- جعلها لكل نفس، ثم خصّ نفوس أهل الإيمان بما خصّ، وأذن لأهل الإيمان أن يتعدوا على نفوس أهل الكفر المعاندين. مَن مِن أهل الكفر الذي نقاتله؟ الذي يُقاتل، الذي يخرج لقتال المسلمين، لكن المرأة الضعيفة، والشيخ الكبير، والعابد في صومعته، هؤلاء لهم أنفس محترمة لا نتعدى عليهم.

تلا الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- آية النساء ليشعر الصحابة بما عليهم من مسؤوليات تجاه هذه الأنفس التي أتت جائعة عارية، وقرأ أيضا آية الحشر (وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ) "نفس" هنا نكرة، لتنظر كل نفس -مسؤولة عن نفسها- ماذا قدمت لغد؟

فهذه فرصة أهل الإيمان أن يقدموا لغد، فيقول النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- "تَصَدَّق رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ" يرشد أهل الإيمان أن يقدموا لغدهم، وأعظم ما يقدم الإنسان لغد: ما مكنه الله منه، ماذا مكنك الله؟ هل مكنك من المال؟ مكنك من العلم؟ مكنك من الثوب؟ مكنك من أي شأن من شؤون الدنيا فلتقدم منه إلى غد، وكلما كانت حاجة المسلمين إلى ما معك أكبر، كان أجرك أعظم إذا كنت مخلصًا؛ ولذلك من النيات الطيبة التي ينويها الإنسان حين

إتقانه الأعمال -تتقن أي شأن من شؤون الدنيا- أن تنفق من هذا الذي أتقنته للمسلمين، وتكون بذلك قد قدمت لغد. واسمع كلام النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- "تَصَدَّق رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّه، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ" لا تستصغر ما معك، لا تقل "ما معي إلا ريال"، قال النبي: "وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ" فإن التفكير في غدٍ حين نلقى ربنا وفي اليوم -يومنا ما أعطانا الله وحبانا- التفكير في هذا وأن ما حبانا هنا أعطانا إياه لنختبر فيه، نقدمه لغدنا عن طريق هؤلاء الذين تمد يدك لإعطائهم، فهؤلاء يمررونه لك إلى غد.

لذلك فليراجع الإنسان نفسه وليطلب حاملين للخيرات يوصلونها إلى غد، ورب العالمين، بفضله ومنته وكرمه، قد أغنى فئة من المؤمنين، فلتكن عناية الأغنياء بإرسال أموالهم وما أغناهم الله به إلى غد عن طريق هؤلاء الذين يمرون عليك. والذي لا يملك أن يعطي شيء، فليسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يفتح له بابًا من أبواب الإنفاق؛ لأن الإنفاق والعطاء يكون بالمال ويكون بالجهد، يكون بالعلم، يكون بالبدن، أبواب عظيمة يفتحها رب العالمين على من شاء من عباده، ويوفق من شاء من عباده أن يغتنموا أعمارهم وأوقاتهم للتقديم لغد.

ابن كثير -رحمه الله- اختار هذا النص لبيان أن أعظم ما نقدمه لغد هو الذي أغنانا الله منه، بماذا أغناك الله؛ قدم لغد.

نعود إلى النص ونرى أن الصحابة الكرام قد استجابوا لنداء الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- فجاء رجل من النصار -وهؤلاء الأنصار السابقين للخير- بصرّة كادت يده تعجز عن حملها، بل قد عجزت! ثم تتابع الناس لما رأوه، هو فتح الباب بإقدامه وبتقدمه، ووقع الحماس في نفوس باقي صحابة رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يقول الراوي: "حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ مُذْهبة" وجه رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- يتهلل فرحًا بإغاثة هؤلاء المسلمين، بتعاون المسلمين لإغاثة إخوانهم، صحابته الكرام استجابوا لأمره وبذلوا من أموالهم ولو كان بهم خصاصة. فرح النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بهذا العطاء، وليس فرحًا بالمال، فقد عرض عليه المُلك مع النبوة -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فأحب أن يعيش عبدًا رسولًا على أن يعيش ملكًا نبيًا، لا يريد المال لنفسه، وإنما ليغني هؤلاء المؤمنين فيكون غناهم سببًا لثباتهم على الدين، وسببًا لتفرغهم لطاعة الله، فتهلل وجهه الشريف -صلَّى الله عليه وسلَّم- فرحًا بما كان من المؤمنين وما سيكون لهؤلاء الفقراء. وقال -صلَّى الله عليه وسلَّم- مشيرًا

إلى الرجل الأنصاري الأول "مَن سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنقُص مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ".

سنة سيئة، كلما تكلم الناس عن الإنفاق، كلما أشاروا إلى إفطار الصائم أو إغناء الفقراء أو حتى المساكين، كلما تكلم الناس عن ذلك، خرج بلسانه أو بقلمه، تكلم عن أمور تجعل المسلمين يعرضون عن الإنفاق.

بالمناسبة نقول إن الإنفاق في سبيل الله مصلحته عائدة على المنفِق قبل المنفَق عليه؛ لأنه تقديم للغد، وإذا حصل بعد الإنفاق أمور فيها أخطاء، مثلما يركزون على أنه في إفطار الصائم قد يحصل من التبذير والإهمال، هذا كلام فيه صحة، لا نستطيع إنكاره لكن ليس الحل امتناع أهل الإسلام عن الإنفاق في سبيل الله! وإنما نأتي بحلول في طريقة الإنفاق، الجمعيات التي تقدم مثل هذه الأعمال تزداد حرصًا على أن يكون هذا الذي يُعطى، يُعطى لمستحقه بطريقة يستطيع المستحق أن يحمله معه بسهولة، يستطيع المستحق أن يحافظ عليه.

هذه شؤون، نكاد نقول إنها شؤون فنية، يعني ترتب هذا العطاء بطريقة يستفيد منها الخلق، وليس لوقوع عيب هنا وهنا نمنع هذا الأمر العظيم المهم الذي يدل على تكافل المجتمع وعدم طمعه، والصدقة تدل على صدق الإيمان، نتلمس المحتاجين، نفعل ما نستطيع من ضبط عملية الإنفاق بحيث أنه لا يصبح هدرًا، هذا هو الصحيح؛ أن ننظم أمورًا لا تسبب إهدارًا لهذا المنفق عليه، لا تسبب إهدارًا لمادة الإنفاق نفسها، ولا تسبب ضياعًا على المنفق عليه؛ لأن المنفق عليه يريد أن يحمل هذا معه، وهو ليس بطرانًا، لكن أنت ما وضعته له بطريقة يستطيع بها حمله، وإن كانت هناك أخطاء أخرى فنحن نسدد ونقارب ما استطعنا.

على المسؤولين على إيصال النفقة للمنفق عليهم أن يتقوا الله وليفعلوا ما يستطيعون في المحافظة على أموال المنفقين، والله المستعان وعليه التكلان. نسأل الله أن يرد عدوان المعتدين على هذا الدين من المنافقين وأعوانهم ويغيث المسلمين في كل مكان، يطعمهم ويسقيهم، وهو القادر على ذلك سبحانه.

هذه الآية ابن كثير أشار إليها إشارة النص الدال على كيف يكون الاستعداد لغد، ونقول إن هذه الآية الكريمة يحث فيها رب العالمين على تقواه، والذي يعين على تقواه ما اقترن

بهذه الآية؛ اقترن بها الأمر بالتقوى، الحث على النظر والتأمل والتفكير فيما قدمت كل نفس لغد، نرى أنه تكرر فيها الأمر بالتقوى، مما يدل على شدة الاهتمام والعناية بتقوى الله، ويمكن أن نقول إن التكرار للتأكيد أو التكرار للتأسيس. ونرى الأمر بالتقوى في القرآن في مواطن عظيمة، دل ذلك على أن الغاية من رسالة الإسلام كلها، بل ومن جميع الأديان وهو تحصيل التقوى. لو نظرنا لسورة البقرة، نجد قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ومعلوم أن الله خلق الجن والإنس لعبادته، فتكون التقوى بمضمون آية سورة البقرة وآية سورة الذاريات هي الغاية من خلق الثقلين الإنس والجن، لأن آية البقرة فيها: (اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وآية الذاريات فيها: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) العبادة غايتها الوصول إلى التقوى، فأصبح غاية وجود الثقلين التقوى.

مسألة التقوى أتت مفصلة في كثير من آيات كتاب الله، لو تأملنا سورة الشعراء -مثلًا- ذكر فيها الأنبياء وذكر أهم خطاب للأنبياء: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ).

يقول نوح -عليه السلام- لقومه: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ).

ويخبر -عزَّ وجلَّ- في قوم عاد نفس الأمر: (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ).

وفي لوط: (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ).

ونفس الأمر في قوم شعيب: (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ).

كل نبي يدعو قومه إلى التقوى، بل نفكر في مطلع سورة البقرة جاء الكتاب كله للتقوى وهداية للمتقين (الم (1) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) ثم بيّن ربنا في الآيات المعنى المتضمن للتقوى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ).

نقرأ في سورة البقرة (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ) فالتقوى لها آثار في العاجل والآجل، أُمرنا بها، بل هي الغاية من عباداتنا، وبمناسبة قرب رمضان هي الغاية من صيامنا، وحقيقة التقوى: أن ينظر الإنسان إلى مآله، إلى لقاء ربه، يفكر في ذاك اللقاء ويبتعد عن كل شيء يفسد اللقاء، ويطلب طلبًا حثيثًا كل شيء يجعل خير أيامه يوم يلقى ربه. هذه هي حقيقة

التقوى؛ أن تطلب كل ما يجعل يوم لقائك برب العالمين خير الأيام، وأن تبتعد وتتقي أن تضيع عليك الفرص، اتقِ أن تضيع فرصتك التي في الدنيا وهي واحدة! اتقِ أن تضيع فرصة أن يكون خير أيامك يوم تلقى الله، واتق كل ما يفسد هذا اللقاء، كن مشغولًا بلقاء الله، واحذر مما وصف الله (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[2].

هناك قوم لا يرجون لقاء الله، الرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها، سببت لهم الغفلة عن الآيات وهذا يموت وهذا يموت وكأنهم لا يرون! وكأنهم هم الخالدون، فغفلوا عن الآيات فكانت النتيجة أن يبتعدوا غاية البعد عما يرضي ربهم، ما استفادوا من فرصتهم أن يجعلوا خير أيامهم يوم أن يلقوا ربهم، ما رجوا اللقاء فكانت النتيجة لكل من لا يرجو اللقاء: أن يرضى بالحياة الدنيا، وإذا رضي بها سيطمئن لها، وسيطلبها وسيغفل عن آيات الله الدالة على الرحلة إليه؛ لذلك هذا المعنى سيكون ظاهرًا في الآية التالية: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) هذه هي الحال؛ إما أن تتقي وتنظر ما قدمت لغد، وتفكر دائمًا في لقاء الله، وتطلب أن

---

[2] () يونس: 7-8.

يكون هذا اللقاء خير لقاء أو أن تضيع الفرصة عليك. الله -عزَّ وجلَّ- في القرآن حثنا على تقواه، "التقوى" هذا الاسم العظيم؛ التقوى تحثنا على كل خير، هذا الاسم العظيم الذي تحته الانتهاء عن كل شر، الذي ملخصه التفكير في لقاء رب العالمين، واغتنام كل الفرص لأجل أن يكون هذا اللقاء خير لقاء، التحرر التام من قيود الشهوات والعبودية لها، والخروج إلى الفضاء الرحب الذي فيه رضا رب العالمين. التقوى تتقي كل ما يحبسك ويثقلك على الدنيا، وتشتغل بكل ما يحررك من الشهوات المقيدة لك، المانعة لك من أن تستفيد من عمرك، ومن فرصك التي حولك.

وفي الصيام الأمر واضح غاية الوضوح، في الصيام أهل الإيمان يتأملون الحكمة العظيمة في التقوى، ويعلمون أن الصيام يحررهم من قيد الشهوات، يحررهم من طلب البدن حاجاته بتكرار، فيجد الإنسان نفسه -مع الصيام- وقد سكت داعي البدن وتقدم داعي الروح، فيكون بهذا الشأن الصيام مطلبًا لأهل الإيمان لأنه يعينهم على أن يكونوا أحرارًا.

الصيام يعتق النفس الإنسانية من رق الحياة ومطالبها، ومن رق الأبدان وحاجاتها في مأكلها ومشربها، من رق النفس وشهواتها، ومن رق العقول والأفكار ونوازعها.

بسبب الصيام لا تخاف أن يفوتك طعام أو شراب، فتزول عنك حتى المخاوف فتشعر بالحرية. وتحرير النفس المسلمة من الثقل الدنيوي هو غاية الصيام، وتحرير النفس المؤمنة من الثقل الدنيوي يسبب لها العناية بروحها، فيكون غاية الصيام أن تتحرر أيها الإنسان؛ تتحرر من رق الدنيا ومتطلباتها، وتفكر في غد، تتقي هذا الرق، تتقي هذه العبودية، كما يعبر محمود شاكر -رحمه الله- في مقالة له يصف الصيام بأنه "عبادة الأحرار" ويشير إلى هذا المعنى المهم وهو أن الصيام عتق للنفس من ثقل الدنيا وتحرر لها منها، فيتقي الإنسان بذلك كل ما يثقله إلى الدنيا، ويرتفع بذلك إلى خدمة روحه، فتكون الروح في موقف الصيام هي الآمرة الناهية، ويكون البدن تابعًا لها، لو صام الإنسان كما يحب الله ويرضى، في نهاره وليله.

التقوى التي هي مقصد الصيام، التي هي أمر الله كما في هذه الآيات، التي تكرر الأمر بها في هذه الآية من سورة الحشر لها آثار عظيمة في العاجل والآجل. من ذلك أن الله -عزَّ وجلَّ- أخبر في سورة الطلاق عن أثر التقوى: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) وكما في سورة النحل: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ).

أما في الآجل وفي الآخرة، فإنها تصحب صاحبها إلى أبواب الجنة (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)[3]، صفتهم أنهم اتقوا ربهم، فإذا ما دخلوها آخت بينهم، وجددت روابطهم فيما بينهم، وآنستهم من كل خوف، (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) اقرأ هذه الآيات العظيمة في سورة الزخرف مستصحبًا أن هذا للمتقين، كيف يقال لهم: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) إلى أن تسمع: (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ).

أمر عظيم خصّ الله به أهل التقوى، كما أن التقوى تصحب أصحابها إلى أبواب الجنة، وإذا دخلوا آخت بينهم وجددت روابطهم وآنستهم من كل خوف، إلى أن تنتهي بهم إلى أعلى عليين وتحلهم مقعد صدق، كما قال الله -عزَّ وجلَّ- في سورة القمر: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ). التقوى لها منزلة عظيمة من تشريع ديننا، بل من كل شريعة سماوية. وصدق الشاعر في قوله:وَلَستُ أَرى السَعادَةَ جَمعَ مالٍ وَلَكِنَّ التَقيَّ هُوَ السَعيد

وَتَقوى اللَهِ خَيرُ الزادِ ذُخــرًا وَعِندَ اللَهِ لِلأَتقى مَزيدُ

---

[3]() الزمر: 73.

التقوى دائمًا هي الدافع لكل خير والرادع عن كل شر، بدليل هذه القصة التي أتى بها ابن كثير -رحمه الله- التي تبين كيف أن تقوى الأصحاب الكرام دفعتهم لهذا الخير والإنفاق. التقوى تحول دون الشر؛ لذلك في آية الدين في سورة البقرة أخبر -عزَّ وجلَّ- عن أحكام تفصيلية، وسط هذه الأحكام كان رب العالمين يخاطب هذا الذي يكتب أو هذا الذي يملّ يخاطبهم: (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) ويخاطبهم: (فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ)، التقوى مانعة من بخس الحق ومن ضياع الأمانة، التقوى مانعة من الشر، ونتصور قول مريم -أم عيسى عليه السلام- لما كانت في هذا الموقف العظيم الرهيب، وهي في طهرها وعفتها، خالية لربها، أتاها جبريل وتمثل لها بشرًا سويًا، (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا)[4]، ما أعظم التقوى! وفي حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، لما جاء الخبر عن الرجل مع ابنة عمه، لما قالت: "اتق الله" فقام عنها وترك لها المال، فالتقوى مصدر تصرفات العبد، كما في قوله تعالى: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)[5].

هنا أمرنا بالتقوى وخوطبنا بها رحمة من رب العالمين بنا، فلنرحم أنفسنا بتقوى ربنا ولنستعد لغدنا ولنعرف أن رب

---

[4]() مريم: 18.
[5]() الحج: 32.

العالمين ما حثنا على هذه التقوى إلا لأجل أن ننجو حين نلقاه.

نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعل خير أيامنا يوم لقائه، اللهم آمين. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.